ثقافة الاستخدام في العمارة
ثقافة الاستخدام المعماري في عصر الثورة الرقمية

د. نوبي محمد حسن
قسم العمارة وعلوم البناء
كلية العمارة والتخطيط – جامعة الملك سعود

إذا كانت الثقافة تؤثر في السلوك أو تتحكم فيه، وإذا كان جوهر الاستخدام في مجال العمـارة هـو سلوك المستخدم تجاه المبنى وتعامله مع عناصره وتجهيزاته المختلفة، فمن هنا يمكننا أن نتفهم الإقرار بضرورة الإقران بين الثقافة والاستخدام في مجال العمارة. وهو ما يدعونا في البداية إلى السؤال:

ماذا نعني بثقافة الاستخدام في مجال العمارة؟

الأمر قد يبدو بسيطا إذا أخذنا السؤال بمعناه السطحي، وفي هذه الحالة فإن الإجابة تكـون الكيفيـة التي يتعامل بها المستخدمون مع المباني المختلفة في البيئة العمرانية. غير أن النظرة العميقة لما يعنيه السؤال تقودنا إلى إطار أكثر تعقيدا، فالكيفية تتطلب تفهما وقد تحتاج إلى خبرة وثقافة؛ تفهـم لماهيـة العمارة في الإطار العام والمبنى أو عناصره وتجهيزاته المختلفة في الإطار الأكثر تخصيصا، وخبـرة سابقة عملية مكتسبة بالممارسة الواقعية، وثقافة نظرية بالاطلاع أو المشاهدة أو من تجارب الآخرين.

فالمستخدم الذي نشأ في بيئة عمرانية اعتاد عليها وعلى عناصرها المعمارية المختلفة، بل واختبـر المباني التي تقع في نطاقها، فهو أكثر قدرة على التعامل معها من غيره من الوافدين على هذه البيئة أو المستخدمين لمبانيها بشكل مؤقت، قد لا يتعدى مرة واحدة في بعض الأحيان.

وهنا تبدأ المشكلة في الظهور، فما نراه من سلوكيات في استخدام المباني تؤثر علي وظيفتها وعلى جمالها المعماري بشكل سلبي، إنما هو ناتج بالفعل من غياب ثقافة الاستخدام، تمثل في شـكل سـلوك غير مقبول وغير متوافق مع طبيعة المبنى لا يكون بالضرورة ناتج عن قصد، فلا معول على الخبرة التي لا يتطلب الأمر أن تتواجد عند المستخدم لكي يتقن كيفية تفهم العمل المعمـاري والتعامـل مـع عناصره المختلفة وهو إنما يختبر المبنى لأول مرة. فكلانا قد استخدام الـسلم الكهربـائي وكـان أول استخدام له هو المرة الأولى في عملية الاختبار، وبالتالي لم يكن لديه الخبرة، ولكن كان لديـه ثقافـة الاستخدام، مما قرأه أو سمعه أو علمه من آخرين. وهكذا فهناك من ذهب لمبنى المحكمة لأول مـرة، ومن ذهب لزيارة مريض في مستشفي لأول مرة، ومن سافر بالطائرة فكـان دخولـه صـالة الـسفر والطائرة لأول مرة، وغير ذلك.

من هنا يأتي دور ثقافة الاستخدام، والذي يعد مطلوبا في الحالات – وهي الكثيرة - التي يتعـرض فيها المستخدم للمبنى لأول مرة، أو حتى مرات كثيرة، بهدف تثقيفه بشكل مناسب وصـحيح لعمليـة الاستخدام. ولنا مثال ناجح في عملية تثقيف الحجاج الإندونيسيين ثقافـة مـسبقة قبـل الـذهاب لأداء المشاعر المقدسة، والتي تنعكس بالإيجاب على سلوكياتهم بل وتجعلهم في شكل مميـز بـين مختلـف الحجاج.

كما أنه يجب ألا نغفل أن المشكلة ليست في استخدام المبنى أو أحد عناصره لأول مرة، وإنما في تفهم عملية الاستخدام وكيفية التعامل مع تجهيزات المباني وعناصرها المختلفة حتى لو كان الشخص من المستخدمين الدائمين للمبنى. وما مشكلة سوء استخدام المصاعد والمقاعد واستخدام دورات المياه في المباني العامة ببعيدة عنا، وكذا مشكلة التغييرات الكثيرة في الوحدات السكنية التي خصصت لمستخدمين لم يسبق لهم السكنى في مثلها (في بيوت ريفية مثلا).

ولاشك في أن المباني كانت في الماضي بسيطة في المكونات والتجهيزات كما كانت محدودة في العناصر، أما اليوم فهناك تطورات جمة في تصميم المباني وفي تجهيزاتها المختلفة، بالشكل الذي يحتم تثقيف المستخدمين وإطلاعهم على الجديد من هذه التجهيزات، فالجهل بكيفية الاستخدام يؤدي إلى عدم الاستفادة من هذه التجهيزات، بل وقد يؤدي إلى توقفها عن العمل، وبالتالي فقدان المبنى لجانب مهم من جوانب أداء الوظيفة بشكل مناسب. فالأنظمة الذكية – على سبيل المثال - قد بدأت تغزو المباني العامة والخاصة، واحتواء المبنى على منظومة ذكية له العديد من الفوائد والتي لو جهل المستخدم التعامل معها فقدت هذه المنظومات وظيفتها وتحول المبني من مبنى ذكي إلى مبنى تقليدي.

ولثقافة الاستخدام مجموعة من الفوائد؛ يأتي الحفاظ على البيئة العمرانية بشكل سليم في مقدمتها، وتلافي السلوكيات المضرة بالمباني وعناصرها وتجهيزاتها المختلفة مع الاستفادة القصوى من هذه التجهيزات كأساس لها، كما يندرج تحتها تحقيق العلاقة الناجحة بين المبنى والمستخدم وشعور المستخدم بتحقيق متطلباته والحصول على رغباته في البناء.

وإذا كانت العمارة بهذه الأهمية الكبيرة – التي نعرفها - في البيئة والمجتمع، وإذا كانت ثقافة الاستخدام على هذه الدرجة من التأثير في المباني وفي كيانها الوظيفي والجمالي، فإن ما نرجوه هو الاهتمام بثقافة المستخدم، ويقع العبء في ذلك على:

أولاً: المتخصصين في مجال العمارة: وهو جزء من رسالتهم في بناء الإنسان، فإذا كان هؤلاء يبنون المحيط الذي يحتوي الإنسان بما يؤثر على كيانه وسلوكه، فإن دورهم مهم في تثقيفه لإكسابه الخبرة النظرية في الاستخدام، حفاظا على مكونات البيئة العمرانية.

ثانياً: وسائل الإعلام المختلفة: التي ما من شك في تأثيرها الكبير على نشر الرسالة الإعلامية، وإن كانت تؤدي رسالتها في التثقيف العام، فلا أقل من تخصيص بعض البرامج عن ثقافة الاستخدام في المباني، بما يؤهل الإنسان إلى مستوى مناسب من تفهم المباني وعناصرها المختلفة ويرتقى بفكره في الكيفية التي يمكنه بها التعامل بشكل ناجح مع عناصر البيئة العمرانية التي يسكنها.